الأهرام

المصدر :

التاريخ :

بين "أولاً" الفلسطينية و"أولاً" الإسرائيلية

جميل مطر *

■ ربما لم يخطئ الذي صاغ تعبير غزة واريحا «اولاً» ولكن يخطئ بعد ذلك كل من يحاول اعادة ترتيب اولويات بقية قضايا الصراع العربي - الإسرائيلي، ابتداء من ثانياً فثالثاً ثم رابعاً وخامساً وهكذا. هل تكون ثانياً لرام الله، ام لرفع المقاطعة العربية عن إسرائيل، ام للتوصل إلى اتفاق بين سورية وإسرائيل، ام للانسحاب من جنوب لبنان، ام لتدفق الاموال والمعونات من الخارج، ام لتخفيف قبضة إسرائيل على الشعب الفلسطيني ام لإثارة فتنة فلسطينية وعربية، ام لفرز تحالفات وخلافات عربية جديدة.

يبدو ان المفاوض العربي لم يضع ترتيباً معيناً بعد «اولاً» على عكس المفاوض الإسرائيلي. بعض المفاوضين العرب يبدأ وعينه على «اولاً» - اي على اقل القليل - ثم يتدرج نحو ثانياً ثم نحو ثالثاً. المفاوض الإسرائيلي يبدأ وعينه على «اخراً». ولذلك وجدنا «اولاً» الفلسطينية بنداً واحداً، اما «اولاً» الاسرائيلية فسلة من البنود. ولن تتناسب «ثانياً» الفلسطينية مع «ثانياً» الاسرائيلية، ولا ثالثاً مع ثالثاً. عين اسرائيل على حسم الصراع لصالحها باثر رجعي، اي بشطب مرجعيات الحق العربي من سجل التاريخ واخراج الصراع من التاريخ. وعين معظم المفاوضين العرب على سلام، اي سلام.

بعد ايام سيطرح الاسرائيليون والامبركيون والفلسطينيون ومعهم ربما بعض العرب على الجمعية العامة للأمم المتحدة مسالة تعديل او تحريف او حذف بعض قرارات الامم المتحدة المتعلقة بالصراع العربي - الاسرائيلي. يقع هذا الطرح ضمن اسئلة «اولاً» الاسرائيلية في مقابل «غزة واريحا اولاً». لا ينكر احد قيمة الجهود العربية الهائلة - والصادقة احياناً - التي بذلت في الامم المتحدة ومنظماتها المتخصصة من اجل استصدار قرارات دولية تدين الاعتداءات الاسرائيلية او تؤكد الحقوق العربية والفلسطينية. بنفس القدر لا يجوز إنكار قيمة القرارات الدورية الصادرة عن مجالس العرب، وهي القرارات التي افتقر اكثرها الى القدرة على التنفيذ، وافتقر بعضها الى النيات الطيبة. هذه القرارات - دولية كانت ام عربية - شكلت في مجموعها سجل تاريخ الصراع العربي - الاسرائيلي، وحافظت على استمراره وعدم تصفيته وان لم تنجح في تسويته تسوية عادلة ومشرّفة.

التاريخ صانع للهوية. انسان بلا سيرة حياة، وسيرة جماعة، وسير نضال وتضحيات وشقاء ومجد، هو انسان بلا هوية. واذا بدانا بحذف جزء من التاريخ، او تحريف شهادات عن تاريخنا خلال نصف قرن، فقد نتدرج في ثانياً وثالثاً او في عاشراً الى حذف جزء اخر ثم اخر، او الى تحريف شهادات او اغفال نصوص في العقائد والمسلمات الاساسية. لا يهمنا الآن كيف يدرس اطفال وشباب المانيا تاريخاً لم يكتبه الالمان فهذا شانهم، مع كل ما نعرفه عن بشاعة النازيين وفظائعهم. ولا يهمنا ان كان حكام اليابان يعتذرون الآن - بعد مرور نصف قرن - عن اعمال همجية ووحشية ارتكبها العسكريون اليابانيون ضد شعوب جنوب شرقي اسيا وضد الشعب الصيني. ولكن يهمنا ان نتاكد ان ابناءنا واحفادنا واحفاد احفادنا لن يشبّوا على تاريخ مزيف او محرّف، فيندفعوا او يُدفعوا الى تقديم الاعتذارات والتعويضات الى الشعب الاسرائيلي عن جرائم اقترفها اباؤهم واجدادهم في حق هذا الشعب «المسالم» المعتدى عليه، او يندفعوا او يُدفعوا الى تسليم قادة سابقين لمحاكمهم اسرائيل كمجرمي حرب.

حتى الآن على الاقل، نعرف ان العرب اصحاب حق، وانه على طول الصراع مع اسرائيل لم تنحصر الجيوش العربية تصرفات وحشية او همجية. نعرف ان اقواماً غازية استوطنت اراضي عربية، وغيّرت معالم مدينة تاريخية لها في الوعي العربي الاسلامي والمسيحي مكانة كبيرة. ونعرف ان الدول الغربية لاسبابها الخاصة ساعدت اليهود على اقامة دولتهم والتوسع على حرب جيرانها. ونعرف ان جيش هذه

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

الدولة داس على كرامة وحقوق الانسان في فلسطين ومصر وسورية ولبنان والعراق والاردن وتونس، وحرق القرى الفلسطينية بسكانها، وطرد مئات الالاف من الفلسطينيين من ديارهم واراضيهم وتركهم في العراء في معسكرات للاجئين، ونبش المسجد الاقصى مرات، وهدم المدارس على اطفالها في مصر وغير مصر. كل هذا نعرفه. ولكن هل سيعرفه عرب القرن القادم. كل هذا وغيره كثير سجلته وتشهد عليه قرارات دولية يسعون الآن الى حذفها وتحويرها. في ظل هذا التزوير القادم سينشأ جيل عربي جديد لا يعرف كيف نشأت اسرائيل، ولماذا تشتت الفلسطينيون، واين كان العرب الآخرون. ان الجيل الذي يولد في واقع لا تاريخ له فهو جيل ينشأ وينمو خارج التاريخ ليتلاعب به كل من له تاريخ.

نحن نتذكر ان اسرائيل جنّدت كل قواها، وقوى المسيحية الصهيونية، وقوى الحكومات الغربية، لتضغط على الفاتيكان لتغيير في الدين المسيحي نصوصاً وتحذف صلوات. ونجحت. ولم تطلب الكنيسة الكاثوليكية من اسرائيل ومن حاخاماتها مقابلاً بالحذف او التحريف في ديانة اليهود وصلواتهم. وينشأ الآن جيل في كل انحاء العالم المسيحي يعرف دينه ناقصاً ويمارسه ناقصاً، ولكن لا يعرف ولن يعرف كيف حدث النقصان.

طلبت اسرائيل تعديل ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية، وطلبت وتطلب تعديل مناهج الدراسة واعادة كتابة كتب التاريخ، وتطلب الآن تعديل او حذف او تحريف قرارات الامم المتحدة ومنظماتها، وستطلب قريباً من الحكومات العربية اجراءات مماثلة في الجامعة العربية ومنظماتها المتخصصة. ومع ذلك فالقيادة الفلسطينية او اي قيادة عربية اخرى مشمولة بمسيرة السلام لم تطلب بعد من اسرائيل حذف او تطوير او تعديل قانون العودة الصادر في العام ١٩٥٠، وقانون املاك الغائبين الصادر في نفس العام، وقانون الاموال الصادر في العام ١٩٥٣، وقانون ادارة الاراضي الصادر في العام ١٩٦٠. لم تطلب قيادة عربية من اسرائيل اعتبار شعارات التوسع الصهيوني واسرائيل الكبرى جريمة يعاقب عليها القانون. بينما لا استبعد ان يطلب منا تشريع قوانين تنص على معاقبة من يتعرض لليهود ولتاريخهم ولطباعهم بالاساءة او يشكك في عدد ضحاياهم ايام النازيين، او يجرم قسوتهم ووحشيتهم ايام صراعهم مع العرب.

ولدينا من الاسباب ما يجعلنا لا نستبعد حدوث شيء من هذا القبيل. لو ان اليهود انتصروا على فرعون مصر، واقاموا فيها لفترة بعد انتصارهم، كتبوا خلالها تاريخ تلك المرحلة. لكنا اليوم نقرأ في تاريخ مصر ان اليهود بناة الاهرام. اقول لا أستبعد حدوث شيء من هذا القبيل، لان مناحم بيغن قال في الاسماعيلية وأمام مسؤولين مصريين ان اليهود اشتركوا في بناء الاهرام قبل خروجهم من مصر، وبعد قوله هذا تنافس المؤرخون المصريون على اثبات ان هذا الامر لم يحصل. ونجحوا في ذلك لأن تاريخ الفراعنة ما زال في اغلبه سليماً لم تمسه كثيراً محاولات التحريف والتعديل والحذف.

لو هدأ المروّجون والمتحمسون من صادقي النيات، وتاملوا قليلاً، لربما اكتشفوا ان سرعة تحقيق سلة «أولاً» الاسرائيلية قد تحرم الفلسطينيين من تحقيق اهدافهم في ثانياً وثالثاً ورابعاً، وتحرمنا جميعاً - وهم معنا - من حقنا ونصيبنا في تاريخ امين ينصفنا بالحق ولا ينصف الاسرائيليين بالتزوير او التحريف. لو كنا هدانا وتروّينا في تبعات كل ما نفعله ونقرره في هذه الايام المستعجلة لما وافق مجلس جامعة الدول العربية على قبول جزر القمر عضواً في الجامعة. كان يجب ان نراعي ان اللغة العربية والثقافة العربية والانتماء للعروبة شروط واجبة للعضوية. وبالمقارنة، واستناداً الى هذه السابقة الخطيرة، تستطيع اسرائيل - إن ارادت - ان تطلب الانضمام كعضو كامل العضوية في جامعة العرب.

---

* مدير المركز العربي لبحوث التنمية والمستقبل - القاهرة.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية